

هل الجامعة مسؤولة عن الأجيال القادمة؟

Is the University Accountable for the Well-being of Future Generations?

أ. د. العيد علاوي، قسم الآداب واللغات، المركز الجامعي نور بشير البيض - الجزائر

l.allaoui@cu-elbayadh.dz

ملخص:

تهدف هذه المقالة، وهي في الأصل درس افتتاحي قُدم خلال افتتاح السنة الجامعية 2022-2023، إلى تبين موقع الجامعة؛ بإبراز التحول الذي عرفته الإنسانية التي انتقلت من نمطي الاقتصاد الزراعي والصناعي إلى اقتصاد المعرفة. سيجري العمل على دراسة الصيغة التركيبية لعنوان المقالة لسانيا، وتحديد أدوار الجامعة التي يُنتظر منها أن تتناغم مع الإيقاع العالمي، ونخلص إلى تقديم توجيهات إلى أعضاء الأسرة الجامعية من شأنها أن تمكن الجامعة من تحقيق الأدوار المنوطة بها. كلمات مفتاحية: الجامعة، التعليم، البحث، الاقتصاد، التنمية.

Abstract:

this article which was originally conceived as an introductory lecture delivered during the inauguration of the 2022-2023 academic year seeks to elucidate the university's role in light of the profound evolution experienced by humanity, transitioning from agrarian and industrial economies to a knowledge-based economy. Within this discourse, we undertake an analysis of the syntactical structure of the article's title from a forward-looking perspective, in Sanya. Additionally, we endeavor to delineate the responsibilities that the university should shoulder to align itself with the global pace of change. We conclude by

offering guidance to the members of the university community, aimed at facilitating the attainment of the roles and obligations that have been entrusted to the institution.

Keywords : university, education, research, economy, development.

1. تقديم:

إن الحديث عن الثقافة ووضعها في أي مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم يقودنا إلى الحديث عن المؤسسات الفاعلة في نشر الثقافة كالمدارس والجامعات والإعلام والجمعيات والمنظمات...، وما دامت الجامعة إحدى هذه المؤسسات التي تعنى بالتثقيف ونشر المعرفة إلى جانب التعليم والبحث العلمي وإعداد كفاءات قادرة على الإسهام في تحقيق التنمية والإزدهار المنشود نجد أغلب الدول تعطي أهمية كبرى للجامعة بدءاً بموقعها الذي يحتل في الغالب موقعا استراتيجيا يتعلق بالتاريخ والثقافة، وأعضاء هيئتها التدريسية، ومناهجها وبرامجها التعليمية وغيرها، وتحرص حرصا بالغا على تحقيق معايير الجودة في أدائها، وفي سياق التحديات التي تواجهها وتواجه مجتمعاتها تحرص باستمرار على القيام بمراجعات في سياق التقييم والتقويم.

انطلاقاً من هذا، ومما جاء في ملخص المقال، نلفي أن الوزارة الوصية قد اختارت للدرس الافتتاحي للسنة الجامعية 2022-2023 موضوعاً جاء بصيغة سؤال أو بصيغة استفهام ((هل الجامعة مسؤولة عن الأجيال القادمة؟)). هذا الملفوظ الذي يمكن القول بأنه يحيل إلى دلالات ومقاصد.

تحاول هذه المقالة أن تقدم قراءة لهذا الملفوظ، وتجتهد في الوصول إلى مقاصده المضمرة، وقد اعتمد الدارس في سبيل تحقيق ذلك على خطة مكونة من خمسة مباحث هي:

- بيان حد السؤال (دوره وفائدته).
- الاستفهام (وظيفته، بلاغته).
- وقفات لسانية مع ملفوظ: هل الجامعة مسؤولة عن الأجيال القادمة؟
- تعريف الجامعة.
- هل الجامعة هي الوحيدة المسؤولة عن الأجيال القادمة؟

2. السؤال (دوره، فائدته):

السؤال مدخل الفهم وأساس المعرفة ومفتاح العلم والتعلم وطارق باب النجاح، فمما جاء في كونه أساس المعرفة والتعلم قول "أبي البقاء الكفوي(ت1094هـ) : «وَالسُّؤَالُ: هُوَ اسْتِدْعَاءُ مَعْرِفَةٍ أَوْ مَا يُؤَدِّي إِلَى الْمَعْرِفَةِ... وَالسُّؤَالُ لِلْمَعْرِفَةِ قَدْ يَكُونُ لِلْإِسْتِعْلَامِ، وَتَارَةً لِلتَّبَكُّيْتِ،¹ وَتَارَةً لِتَعْرِيفِ الْمَسْئُولِ وَتَبْيِينِهِ... وَأَمَّا سُؤَالُ التَّعَلُّمِ وَالْإِسْتِشَادِ فَحَقُّ الْمَعْلَمِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ كَطَبِيبٍ يَتَحَرَّى شِفَاءَ سَقِيمٍ فَيُبَيِّنُ الْمَعَالِجَةَ عَلَى مَا يَفْتَضِيهِ الْمَرَضُ، لَا عَلَى مَا يَحْكِيهِ الْمَرِيضُ».²

وجاء في كونه طارق باب النجاح قول أحد الدارسين في سياق حديثه عن أبيات صوّر فيها أحد الشعراء المعاصرين حال الناس المتردية بقوله:³

-لا أحد يعرف أين الباب؟

-ولا أحد يسأل أين الباب؟

قال معلقاً: « إن السؤال حين يعبر عن الإحساس الصادق العميق بالمشكلة يمثل نصف الطريق إلى المعرفة أو الحل».⁴ والظاهر، أنه بانعدام المعرفة وغياب السؤال ينعدم الوصول إلى الباب.

3. الاستفهام (وظيفته، بلاغته):

يدل الاستفهام في الاصطلاح على «طلب الإفهام والإعلام لتحصيل فائدة علمية مجهولة لدى المستفهم».⁵ ويجدر بنا التنبيه إلى أنه لا يراد به طلب الإفهام والإعلام لتحصيل فائدة علمية مجهولة لدى المستفهم على سبيل التأييد، وهذا ما تدل عليه العبارة المتممة لهذا القول «وقد يراد بالاستفهام غيرُ هذا المعنى الأصلي له، ويستدل على المعنى المراد بالقرائن القولية أو الحالية».⁶

4.وقفات لسانية مع ملفوظ: هل الجامعة مسؤولة عن الأجيال القادمة؟

لقد تتبع علماء العربية خصائصها ومنطقها في التركيب، ومن جملة ما خلصوا إليه في هذا السياق ما يلي:⁷

-أن أدوات الاستفهام تنقسم إلى ثلاثة أقسام: ما يستفهم به عن التصور والتصديق، ويختص هذا بهمزة الاستفهام، نحو: أمسؤولة الجامعة عن الأجيال القادمة؟ أو أمسؤول عن

الأجيال القادمة الجامع أم الجامعة؟، وقسم يستفهم به عن التصديق فقط، ويتعلق هذا بـ((هل))، وقسم يستفهم به عن التصور فقط، ويختص هذا بسائر الأدوات نحو: ما الجامعة؟ كيف الجامعة؟ أين الجامعة؟...

-((هل)) أداة يستفهم بها عن التصديق فقط، فلا يذكر مع المستفهم عنه بها معادل. (إدراك النسبة الحكمية موجبة كانت أو سالبة)

-الأصل في كلمة ((هل)) أن تدخل على جملة فعلية، فيلها فعل لفظاً أو تقديرًا. فإذا عدل عن الجملة الفعلية، فأدخلت ((هل)) على الجملة الاسمية، فذلك لنكتة بلاغية يلاحظها البلغاء وهي جعل ما سيحصل كأنه حاصل فعلاً، اهتماماً بشأنه، أو تأكيداً للرغبة بتحقيق وقوعه.

ثم إن استثمار أدبيات النحو الوظيفي واللسانيات التداولية يقودنا إلى أن التأمل في الصيغة الاستفهامية "هل الجامعة مسؤولة عن الأجيال القادمة؟" التي تشكل خطاباً، والمتخذة منطلقاً أو مدخلاً للدرس الافتتاحي لهذا الموسم لا يتوقع منها الإجابة بنفي أو إقرار، بقدر ما تقتضي القيام بعملية قرائية للوصول إلى تحديد المستوى العلائقي للخطاب «الذي يضطلع بربط المتكلم بالمخاطب عن طريق القوة الإنجازية التي قد تكون حرفية أو مستلزمة...»⁸.

ومعنى هذا أن القوة الإنجازية التي يحملها الخطاب «يمكن أن تكون مباشرة تستنتج من نمط العبارة ذاته أو غير مباشرة يُتوصل إلى استكناها عن طريق سلسلة من الاستدلالات قد تطول وقد تقصر»⁹.

وانطلاقاً من هذا، يمكن القول إن الدلالات المستلزمة من هذه العبارة "هل الجامعة مسؤولة عن الأجيال القادمة؟" يمكن حصرها فيما يلي:

-الجامعة والتنمية المستدامة.

-الجامعة والتحديات الراهنة.

-دور الجامعة في حياة الأمم والمجتمعات.

-دور الجامعة في رقي الأمم والمجتمعات.

ويمكن لأي قارئ أو متلقٍ أن يستلزم دلالات أخرى، فمدارك الناس ومستويات تلقيهم تختلف. ومن الوجهة أن ننطلق من هذه الدلالات المستلزمة للحديث عن الجامعة وأدوارها الريادية.

5. تعريف الجامعة:

إن الإجابة عن هذا السؤال هي التي ستقرر مسؤولية الجامعة عن الأجيال القادمة من عدمها، وسنعرض جملة من التعريفات والرؤى التي حدّ بها الباحثون هذه المؤسسة ووظائفها والتحوّلات التي ينبغي أن تشهدها لتضبط جودتها وتتناغم مع الإيقاع العالمي.

جاء في "معجم ألفاظ الحياة العامة في الجزائر" « أن الجامعة مؤسسة عمومي ذات طابع علمي وثقافي ومبني، تتمتع بالشخصية المعنوية والاستقلال المالي، تعنى بالبحث العلمي وتمنح شهادات علمية (ليسانس، ماستر، دكتوراه) في مجموعة من التخصصات العلمية المختلفة».¹⁰ وإذا فهم من هذا التعريف أنه متعلق بالطابع العمومي، فهناك أيضا جامعات ذات طابع خاص. وفي حديث يبسط تعريف الجامعة ويبين ما ينبغي أن تكون عليه أوضح "عبد الله حمادي" أن الجامعات في مختلف بلدان العالم لها الصدارة والمكانة المميزة والمرموقة، وأن التجارب أثبتت أن مردودية تفوقها يعود الفضل فيه إلى تلك المنابر الحرة التي كانت ميدانا للحوار الجاد وحقلا للتجارب، مؤكدا على أن الجامعة ستظل بالنسبة لرجل العالم المتقدم والإنسان الواعي القلعة الأمامية للتخطيط والتحضير لتجاوز الخطوط الأمامية، وطرق بوابات جديدة في عالم الكشوفات والاختراعات، وتنظيم أساليب حياتية على منهج ذوقي متميز...¹¹ ونجده في مقام آخر يذهب إلى أن المنابر الجامعية خير مؤهل بل المرشح الذي لامناص منه الاضطلاع بمهام جسام منها إثبات الوجود وأحقية اقتسام مواقع النفوذ في معترك الثقافات.¹² ونشير في هذا الجانب إلى أن هناك أبحاثا كثيرة حول جودة التعليم العالي، والتعليم العالي والتنمية المستدامة، تتبع ما جاء في المؤتمرات العالمية ومشاريع الإصلاح،¹³ وطُرحت فيها جملة من الأفكار منها: ضمان التعليم الجيد المنصف والشامل للجميع، وطرح فكرة التعلم مدى الحياة للجميع،¹⁴ وهنا ترى الباحثة "آمال شوتري" أن أهداف التنمية المستدامة تباركها الضمائر الحية والنفوس السوية المتزنة، إلا أن التعليم في الدول النامية يتعارض مع أهداف التنمية المستدامة من حيث اشتراطات التطبيق واختلافات الرؤى وازدواجية التعامل وشح الموارد وضبابية التصورات...لتفضي الباحثة إلى بحث ودراسة تحدّ هو أن الجامعة الرسمية تراحمها جامعة خفية موازية تتمثل في مافيا التجارة ومنطق الربح السريع والمصالح الشخصية، حيث اخترق معها الفساد الأماكن الأكثر قدسية وداس على منظومة القيم.¹⁵

وهنا ينبغي التفطن إلى الأمور التي تشكل هي الأخرى تحديات، فجميل أن تتناغم الجامعة مع الإيقاع العالمي لكن دون أن تدوس على منظومة القيم ومعايير الجودة الحقيقية، فما نلاحظه من غياب للطلبة عن قاعات الدرس، وفي هذا يقول أحد الأساتذة: تجاوزنا القول بأن الطلبة لا يحضرون من بيوتهم إلى القول بأن الطلبة لا يحضرون من غرفهم في الحي الجامعي. وأحيانا نراهم يتسكعون في الأروقة والأفنية ولا يقبلون على الدرس، ومن جهة أخرى فما نسمعه من أحاديث تتنافى وأخلاقيات المهنة لا يُمكن الجامعة من الاضطلاع بالأدوار الريادية المنوطة بها، ففي كثير من الأحيان يجد المسؤولون أنفسهم منشغلين بإدارة خلافات ومشاكل تافهة تعرقل تفكيرهم في التحديات أو المشاريع الكبرى التي تنهض بالمؤسسة والمجتمع، دون أن نتحدث عن العدالة والشفافية، فمن غير المعقول أن نتحدث عن عروض تكوين تحوي مقاييس تتعلق بالحكمة والحكم الراشد، والمسؤولون عنها يعصفون بالعدالة والشفافية، فنجدهم يتعاملون بازدواجية المعايير والأهواء ...، إلى غير ذلك من السلوكات التي يعرفها عامة من ينتسبون إلى هذا الحرم الذي ينبغي أن تعاد إليه هيئته وقديسيته.

6. هل الجامعة هي الوحيدة المسؤولة عن الأجيال القادمة؟

إن الجامعة ليست هي المسؤولة الوحيدة عن الأجيال القادمة، وإنما تقاسمها باقي المؤسسات الأخرى هذه المسؤولية، ولئن أُلقي على عاتقها الدور الأكبر، فيمكن القول بأن التفكير في الأمر حاضر، فالمناهج والعروض التكوينية راعت بعض الجوانب الحياتية التي تمثل تحديا، فتم إدراج مقاييس تتعلق بالحكمة والمواطنة، والمقاولاتية، والمخدرات والمجتمع... كما أن الجامعة تقدم أدوات تفكير منهجية الأصل فيها أن تستثمر من قبل الفرد في تدبير شؤون حياته كلها. وهي مطالبة، بالدوام، ببذل مزيد من الجهد في تطوير المناهج، وبحث أدوات وطرق التحصيل العلمي.

لامنص أن الجامعة لن تتبوأ المكانة المنوطة بها ما لم تستشعر المسؤولية، بحيث يؤمن بروح المسؤولية كل طرف من أطرافها، فهذا الأمر يحقق الديناميكية على مستوى الفرد ثم على مستوى المؤسسة، فمدار أي تغيير قائم على إيمان الفرد به، متوسلا إلى ذلك بتغيير الذهنية والنفسية والتقنية، وتشجيع روح المبادرة، والقدرة على التجديد، القدرة

على النقد البناء، والقدرة على الحوار، والقدرة على تقبل النقد البناء¹⁶ وغيرها من الآليات التي تضمن جامعة واعية بحاضرها، مجتهدة في استشراف مستقبل أمتها. إننا نعيش اليوم في عالم يعرف تحولاً رهيباً، لم يعد المال فيه مقياساً لتقدم الأمم والشعوب، بل صار «الغنى الحقيقي هو ما يمتلكه أبناء هذه الأمة أو تلك من معرفة ومهارات وما يتمتعون به من صحة... فمقياس الرفاه الاجتماعي للمواطن بات يقاس بمؤشرات ثلاثة:

-تمتع المواطن بصحة جيدة وحياة مديدة.

-انتشار المعرفة.

- مستوى معيشة يليق بالكرامة الإنسانية.¹⁷

ويبدو أن الرفاه الاجتماعي تابع أو لاحق للرفاه العلمي والمعرفي، ونستذكر بهذا قول "الشيخ البشير الإبراهيمي" الذي صوّر بشاعة المستدمر الفرنسي في استهدافه عوامل قوة الأمة الجزائرية، حيث انتهج سياسة التجهيل وسياسة التفجير وسياسة الفرقة، وهي أمراض ما حلت بأمة، مهما كانت قوتها، إلا وأفنتها. قال: «...الجزائر ثائرة بالمعنى الأول على الاستعمار الفرنسي الذي جثم عليها قرناً وربع قرن وسامها سوء العذاب ورماتها بالمخزيات الثلاث: الجهل والفقر والمرض، واستأثر بخيرات الوفيّة، وقضى بأساليب يعجز عنها الشيطان على كل أسباب القوّة فيها، وتدسس إلى مكامن الروابط الأخوية بين أبنائها فأفسد الأخوة وقطع حبال الأرحام حتى نصب للأخ عدواً»¹⁸. وما من شك أن الجهل هو أصل هذه الأمراض وغيرها، فما حل الجهل ببلد إلا وقال له الفقر خذني معك،¹⁹ وما فشو الفرقة والعصبية إلا بجهل.

إن الدراسات والأبحاث تؤكد أن "اقتصاد المجتمعات الإنسانية مر بمراحل رئيسية ثلاثة: الاقتصاد الزراعي، والاقتصاد الصناعي، واقتصاد المعرفة، وامتاز مجتمع المعرفة بقدرته على القيام بثلاث عمليات أساسية هي:

-إيجاد المعرفة الجديدة.

-نشر تلك المعرفة بين جميع أفراد المجتمع.

-وضع تلك المعرفة الجديدة في خدمة التنمية البشرية.²⁰

ومعنى هذا أن «التعليم العالي مسؤول عن إيجاد المعرفة الجديدة عن طريق البحث العلمي...وهذا ما يميزه عن التعليم العام، وعليه أن يقوم بنشر تلك المعرفة الجديدة عن طريق التعليم، وينتظر من التعليم العالي أيضا أن يضع تلك المعرفة الجديدة في خدمة التنمية عن طريق القادة وفاعلي التغيير الذين يُعدّهم ويدربهم»²¹. إن ما تقدم، وبخاصة الأقوال الثلاثة الأخيرة، يحدد بدقة التحولات الحادثة، والأدوار المنتظرة من الجامعة والتي تجعل مسؤوليتها مضاعفة، ويبدو أن سير الجامعة على الجادة القويمة متوقف على الوعي الذي له الدور البالغ في المسألة؛ هذا الوعي الذي ينبغي أن يتحلى به جميع الفاعلين (مسؤولون، أعضاء هيئة التدريس، طلبة، موظفون، مجتمع...)، وعلى الجميع أن ينخرط في نشره ودعمه وترسيخه عبر مختلف الوسائل والوسائط.

7. خاتمة:

لقد جاء عنوان درس فاتحة السنة الجامعية 2022-2023 على شكل تساؤل، وللسؤال بعد حضاري، فالسؤال مدخل الفهم وأساس المعرفة ومفتاح العلم والتعلم، ولا يخفى عن أمة حضارة النص؛ أمة اقرأ الحظ الذي ناله السؤال في القرآن الكريم، فلفظ "يسألونك" له بالغ الأثر في الأسماع والنفوس، ويبدو من التحليل اللساني للمفوض (هل الجامعة مسؤولة عن الجيل القادم؟) أن السؤال يحظى بسلطة، وذلك لأنه يحفز العقل على النشاط بالتفكير والبحث والنظر في فحوى الخطاب.

لفظ الجامعة له قدسيته الخاصة التي يكتسبها من المهام والأدوار السامية الموكلة إليه، والدعوة قائمة هاهنا إلى الحفاظ على هذه القدسية، والوعي بشرف الرسالة، مع فقه التحولات ورصد التحديات والإعداد لمواجهةها. فالأسرة الجامعية مسؤولة ومحيطها مسؤول، والجميع مطالب ببذل الجهد في حدود الاستطاعة، وكل من موقعه؛ فعلى المُسيّر ضمان البيئة المواتية للإبداع والعطاء، ومن أعضاء هيئة التدريس العمل الجاد والبحث الدائم ونشر المعرفة، ومن الطلبة الحرص والاجتهاد واستحضار أن من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم.

8. الهوامش والإحالات:

¹ - التبكيث: التوبيخ والتقريع.

- ² - الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تح: عدنان درويش و محمد المصري، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت لبنان، ط2، 2011، ص 421.
- ³ - وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مارس 1996، ص 14.
- ⁴ - م ن، ص 14.
- ⁵ - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها، ج1، ص 258.
- ⁶ - م ن، ص 258.
- ⁷ - م ن، ص 258-262.
- ⁸ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، منشورات ضفاف بيروت لبنان، دار الأمان الرباط، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2013 ص540.
- ⁹ - م ن، ص 539.
- ¹⁰ - ابن حويلى ميدني وآخرون، معجم ألفاظ الحياة العامة في الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، 2020، ج1، ص 458-459.
- ¹¹ - عبد الله حمادي، مقامة جامعة قسنطينة، مساءلات في الفكر والأدب (محاضرات)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، 1994، ص 312-313.
- ¹² - م ن، ص 315.
- ¹³ - نحو: علي القاسمي، دواعي اصلاح الجامعات العربية، السياسة الثقافية في العالم العربي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 2012، ص 159-173.
- ¹⁴ - علي القاسمي، دواعي اصلاح الجامعات العربية، السياسة الثقافية في العالم العربي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 2012، ص 166.
- ¹⁵ - آمال شوتري، الجامعة الخفية: قراءة في مؤشرات الفساد العالمي للتعليم، مجلة أبحاث ودراسات التنمية، مج10، ع1، جوان 2023، ص.ص 07-17.
- ¹⁶ - محمد مسلم، العمل السياسي بين الإدارة العلمية والضوابط الأخلاقية، دار قرطبة للنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص 34-40.
- ¹⁷ - علي القاسمي، دواعي اصلاح الجامعات العربية، السياسة الثقافية في العالم العربي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 2012، ص 166.
- ¹⁸ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ج5، ص 236.
- ¹⁹ - مقولة سمعتها عن أحد علماء ليبيا في درس رمضاني.
- ²⁰ - علي القاسمي، م ن، ص 168.
- ²¹ - م ن، ص 168.